لمحة تاريخية

إن استعمال وسائل العنف في حل المشاكل الإنسانية، وفي العلاقة مع الغير، لم يكن حديثاً، ولا شيئاً مستغرباً، في التعامل بين سكان هذه الكرة، بعد قصة ابني آدم.

وأسباب استعمال العنف أنواع منوعة، وقد يكون على أجل الأسباب، لطلب الملك والسلطان، وعلى أتفه الأسباب، كسباق الخيل والرِّهان.

وفي تاريخنا العربي القديم، تلك الحرب التي دامت أربعين عاماً، بين قبيلتي بكر وتغلب ابني وائل، وهي حرب البسوس، من جراء ناقة رعت في حمى كليب فعقرها.

وحرب داحس والغبراء، بين حيين شقيقين، هما عبس وذبيان، ابنا غطفان، من أجل الرهان على سباق فرسين:

فَلَيتَهُما لَم يَجريا قَيدَ غَلوَةٍ وَلَيتَهُما لَم يُرسَلا لِرِهَانِ

كما قال شاعرهم، يبكي قتلاهم، بجفر الهباءة.

ولعلنا لا نطيل فالتاريخ مليء بتلك المآسي، إلا أن المرتبط منها بالفكر أو الإيديولوجية كان من أكثرها تدميراً، وإرهاقاً، وأعلقها بالذاكرة.

إذ يرى المؤرخون الغربيون أن أقدم جماعة إرهابية عرفها التاريخ المكتوب هي حركة الورعاء اليهود في القرن الأول للميلاد ممن لجؤوا إلى العنف المفرط في مواجهة الاحتلال الروماني. وقد اشتهروا في التراث اللاتيني المسيحي باسم الورعاء Zelotes في حين أطلق عليها الرومان "المخنجرين" نظراً إلى أنهم كانوا يعتمدون الخنجر وحده في اغتيال ممثلي السلطة الرومانية. وكذلك في تصفية أبناء جلدتهم ممن كانوا يعتبرونهم كفاراً أو مقصرين في التقيد بحرف الشريعة التوراتية.

وقد عرفت الحضارة الإسلامية منه نماذج أساءت إلى الولي، قبل القصي، وإلى الصديق قبل العدو.

في القرن الأول كان الخوارج ضئضئ الفرقة، ومحتد الفتنة، فكفروا بالذنب، وأعلنوا "ألا حكم إلا لله"، ليحكموا السيوف في رقاب المسلمين، ولا يتماثل العالم الإسلامي للشفاء، حتى تقوم فرقة الحشاشين، في أواخر القرن الخامس الهجري، ليكونوا مقدمة لاستيلاء الصليبين على الشام.

وكانت طائفة الحشاشين تكون "عصبة سرية"، يدين أعضاؤها بالطاعة العمياء، للرئيس الروحي، وكانت عادتهم الاغتيال، للتخلص من خصومهم، وأول ضحاياهم الوزير نظام الملك، ومات السلطان بعده بوقت قصير، وكانوا يتحصنون في الجبال، ودام أمرهم وفشا شرهم إلى أواسط القرن السابع الهجري، حيث قضى عليهم السلطان بيبرس ٦٧١هـ.

وبالإشارة إلى القرن الماضي، تعاقبت على حمل مشعل إشعال الحروب، وتأجيج زخيخ جمر المعارك، الأفكار القومية مع النازيين في ألمانيا، والفاشيين في إيطاليا وإسبانيا، وفي الوقت نفسه كان اليساريون باسم البروليتاريا، يضرمون في هشيم الشعوب نيران الصراع الطبقي في آسيا، وأمريكا اللاتينية، وإفريقيا، فكانت حروب العصابات تشن تحت بيارق تحرير الشعوب، إلا أن وصول مجموعة من اليهود إلى فلسطين حيث كونت عصابات الهجانا ١٩٢٠وغيرها، قبل إعلان دولة إسرائيل ١٩٤٦م كان بداية عهد لإرهاب، ذهب ضحيته مئات الآلاف من الأبرياء، ولا يزال ينفخ في كير حرب لا يعلم نهايتها إلا الله.

وفي حروب التحرير في العالم العربي، كان الروح الإسلامي والنفس القومي، محفزين للمقاومة التي يسميها المستعمرون "إرهاباً".

إلا أنه في أواخر القرن الماضي، ومنذ قيام الثورة الخمينية في إيران، أصبحت الحركة الإسلامية الشيعية، في الواجهة في أعمال عنف هنا وهناك، وفي الوقت نفسه كان الغزو السوفيتي الروسي في أفغانستان، يطلق شرارة حرب دينية، كان للمسلمين السنة على مختلف أطيافهم، الدور الأكبر والنصيب الأوفر فيها.

إلا أن التطورات اللاحقة، بعد تحرير أفغانستان شهدت طفحاً، لهذه الحركة في مناطق أخرى، من العالم، وصلت إلى إخلالات خطيرة بالأمن، في بقاع عدة من العالم، بما فيها العالم الإسلامي نفسه، وبخاصة بعد غزو العراق للكويت، والرد العالمي عليه، بقيادة الولايات المتحدة.

وهكذا ارتكبت أعمال، وتفجيرات، خارج نطاق كل شرعية، في أمكنة عدة، كانت تمثل خطوطاً حمراء، في نفوس المسلمين.

إلا أن الصاع قد طف، وجاوز الحزام الطبين، وأتى الوادي بطمه على القرى، بالاعتداء المروع على برجي منهاتن بنيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية، حيث بزغ فجر مرحلة جديدة، أو قل أسدل ليل دامس محلنكك أرواقه على العالم كله، فغابت فيه كثير من حقوق الإنسان، والقوانين التي كانت تحكم القوة الكبرى في تعاملها في الداخل والخارج.

وجرت على منوالها أوروبا، وبخاصة بريطانيا، التي تعيش حرباً ضد الجيش الجمهوري الأيرلندي، منذ أكثر من ثلاثين سنة.

وهكذا تبدلت القوانين، وتغيرت الأنظمة، واختلت الموازين، واحتلت العراق، وقبلها أفغانستان، فكان ما كان، مما هو بارز للعيان، ومعروف لكل إنسان، لكن التفجيرات طاولت أيضا، بلاداً آمنة خارج الميدان، تحت ذرائع، وشبه واهية، سنتعرض لها...

هنا اتضحت أشياء جديدة:

١- توسع مفهوم الإرهاب، ليشمل كثيراً من الأعمال، التي لم تكن مصنفة.

٢- صدرت قوانين، تجرم الإرهاب في بلاد لم يكن فيها قانون يجرم الإرهاب.

٣- تعيين جهات معينة بوصفها الإرهابية، هي تنظيم القاعدة وطالبان، وبصفة عامة، فتح إمكانية توجيه الاتهام إلى أفراد وهيئات وحكومات في المنطقة، على قاعدة: من ليس معنا فهو مع الإرهاب.

وأصبحت الحملة، على الإرهاب تمثل ساحات قتالية حقيقية، من حدود باكستان، إلى حدود منطقة الخليج، وتركيا، وسوريا.

لقد قامت مجلة القضايا الدولية Questions Internationales في ملف عن الإرهاب، عدد يوليو - أغسطس ٢٠٠٤م بتقديم تسلسل تاريخي عن الإرهاب، استعرض بعض الحوادث التاريخية، ذات المغزى للإرهاب، لبيان قدم الظاهرة، وتنوع المناطق الجغرافية التي احتضنتها، واختلاف المذاهب والمشارب لمرتكبي الإرهاب.

في سنة ١٧٩٨م ظهر مصطلح الإرهاب Terrorisme في ملحق الأكاديمية الفرنسية، لتعيين نوع الحكومة التي هي الحكومة الثورية الفرنسية، والتي تقوم بأعمال بشعة ضد الملكيين، وغيرهم، باسم الثورة والحرية.

سنة ١٨٠٠- نجا الإمبراطور نابليون بونابرت، من محاولة اغتيال، بقنبلة قام بها الملكيون.

١٨٨١- في مارس اغتيل القيصر الإسكندر الثاني، من طرف الشباب الفوضويين.

١٨٩٢- ١٨٩٤ سلسلة من الاعتداءات الإرهابية.

١٨٩٤ - ٢٤ يوليو تم اغتيال رئيس الجمهورية الفرنسية سادي كارنوت.

١٩١٤ - في يونيو اغتيال دوق النمسا فرناند، مما عجل بنشوب الحرب العالمية الأولى.

١٩٣٢ -اغتيال رئيس الجمهورية الفرنسية بول دومير، من طرف شاب فوضوي روسي.

١٩٣٤-اكتوبر اغتيال ملك يوغسلافيا الأسكندر الأول، في مرسيليا واغتيل معه وزير خارجية فرنسا، من طرف القوميين الكرواتيين، فكانت من نذر الحرب العالمية الثانية، التي نشبت بالفعل ١٩٣٩م.

١٩٣٧- عصبة الأمم المتحدة تعرف الإرهاب.

١٩٤٦- في يوليو منظمة أرقون اليهودية، تعتدي على مقر الإدارة والاستخبارات البريطانية في فندق الملك داود فتقتل ١٠٠شخص.

١٩٤٧- يُحل تنظيم الإخوان المسلمين، بعد مقتل النقراشي، فيلجأ إلى السرية.

١٩٤٨- سبتمبر اغتيال الكونت برنادوت، الممثل الخاص للأمم المتحدة في فلسطين، من طرف منظمة اشترن الصهيونية.

١٩٤٩- اغتيال الشيخ حسن البنا.

١٩٥٤- حل حركة الإخوان المسلمين في مصر.

١٩٥٩- ميلاد حركة الباسك "إيتا" في اسبانيا.

١٩٦٦- إعدام سيد قطب.

١٩٧٠- اعتداءات كثيرة، في ايطاليا من طرف الألوية الحمراء، وفي ألمانيا من طرف عصابة "بادير".

وفي السنة نفسها ميلاد "الجماعة الإسلامية" أو "الهجرة والتكفير" في مصر.

وفي السنة نفسها كذلك أسس غوسمان في البيرو حركة "الدرب المضئ". حيث وصل عدد القتلى بسبب هذا التنظيم في السنوات التالية ٢٥ ألفاً.

١٩٧٣- اغتيال رئيس الوزراء الإسباني كاريرو ابلانكو من طرف "إيتا"

١٩٧٩- فبراير وصول الخميني إلى طهران

١٩٨٣- مواجهة في مدينة حماة السورية، بين الحكومة والإسلاميين، قتل فيها حوالي ٢٠٠٠٠ شخص.

١٩٨٤- تأسيس حزب الله في لبنان.

تأسيس دار المجاهدين العرب في بيشاور، نوفمبر من السنة نفسها اغتيال رئيسة وزراء الهند اندريا غاندي من طرف متعصبين من السيخ.

١٩٨٥- يونيو انفجار طائرة بوينق هندية في الجو من طرف السيخ.

١٩٨٦- فبراير - سبتمبر سلسلة من الاعتداءات بالقنابل في باريس أسقطت ١٣ قتيلا نسبت إلى موالين لإيران.

١٩٩١- إلغاء نتائج الانتخابات البرلمانية في الجزائر، بعد فوز جبهة الإنقاذ فيها، وتوالت أحداث العنف، ومنها مقتل بوضياف، وهلاك عشرات الآلاف.

اغتيال شابور بختيار في فرنسا من طرف موالين للثورة الإيرانية.

مقتل رئيس وزراء الهند راجيف غاندي من طرف منظمة نمور التاميل.

١٩٩٥- مارس طائفة "الحقيقة المطلقة" في طوكيو، تعتدي بغاز السارين في ميترو الأنفاق، فتوقع عشرة قتلى وتسمم ٥٠٠٠ شخص.

في إبريل من السنة نفسها، أعضاء من اليمين المتطرف الأمريكي يفجرون مبنى للإدارة الفيدرالية، في أكلاهوما سيتي يوقع ١٦٨ قتيلاً.

يوليو من السنة نفسها اعتداءات في ميترو باريس، نسبت للجماعة الإسلامية الجزائرية.

نوفمبر من السنة نفسها، حركة م١٩ تحتجز رهائن في كلومبيا، وتغتال ٢٦ من أعضاء المحكمة العليا.

٢٠٠١- سبتمبر الهجوم على برجي التجارة بنيويورك.

وانهمر الطوفان والقائمة طويلة.

أردنا من خلال هذا التنوع، الذي تصوره هذه القائمة، وهو تنوع جغرافي، وديني، وإيديولوجي، ممتد في الزمان والمكان، أن نوضح أن الإرهاب لا يختص بدين دون آخر، ولا ببقعة دون أخرى، وأن الإسلام لا يجوز أن ينسب إليه إرهاب المرهبين، واعتداء المعتدين، حتى ولو كان بعض المسلمين في لحظة من التاريخ، ودورة من دورات الزمن، انخرطوا في سلك الإرهاب.

وفي منظومة الحروب غير الشرعية، فيجب أن لا ننسى أن الغالبية العظمى، لا تعتنق ذلك الفكر، وأن المسلمين هم ضحايا الإرهاب، بمختلف أشكاله وصوره.